التضحية (١)

أو

شهداء الطف

بقلم الاستاذ عبد الرزاق العائش

لايخلو إنسان ـ مهما تكن ماهيته ـ من هدف يبذل في سبيل تحقيقه ماعز وغلا ، أو غاية يسعى الى نيلها بما اوتيه من حول وقوة . ولما كان الانسان مجبولا على حب البقاء ، وانما يكد ويكدح ليحيا الحياة التي ينشدها . . . فمن المستحيل ان يقدم على امر يفقده هذه الحياة .

غير أن الحياة حياتان ... حياة مادية ، وهي التي يحياها الاناني الذي يضحي بالوف من البشر في سبيل مصلحته الخاصة ، وحياة معنوية ، وهي التي يحياها الاجتماعي الذي يضحي بنفسه ونفيسه في سبيل انقاذ طفل صغير او شيخ هرم . والفرق بين الحياتين من حيث الزوال والخلود ، كالفرق بين المادة والمعنى .

لذا نرى بعضا من الناس تنتهي حياتهم ، وتنطمس اعلامهم بموتهم ، وهؤلاء هم العجزة الخاملون ، الذين قصرت بوعيهم عن ادراك اللباب فرضوا بالقشور الخاوية وبعضا يذيع صيتهم وتطير شهرتهم بعد وفاتهم ، وهؤلاء هم الابطال الخالدون الذين ادركوا سمو المعنى فسمت نفوسهم كسمو اهدافهم ، حتى غدوا يتحدون العاقل ان ينساهم ، او ان يشتغل عنهم بسواهم .

وهكذا سلك الاقدمون سبل حياتهم ، وهم واثقون بما رسموا من خطط انها توصلهم الى غاياتهم ، حتى غدوا بين مادي زائل ومعنوي خالد .

ومن اولئك الابطال الخالدين الذي ينسى الانسان نفسه ولاينساهم .. شهداء الطف .!! اولئك الذين يخيل لي ـ في موقفي هذا ـ ان ارواحهم الطاهرة ترفرف في اجواء كربلا ، تلك المدينة التي كتب لها ـ بدمائهم ـ ان اصبحت كعبة للاسلام ثانية ، يحجون اليها من كل فج عميق . .

(١) القاها الكاتب بنفسه في الليلة الرابعة .

ترفرف ارواحهم مطمئنة شاكرة للجميل صنيعه . ولاريب انها ترفرف فوق هذا الحفل الكريم وامثاله ، بل وفوق كل مجتمع او نادٍ يلتئم باسم الفضيلة ، فتحييه باشة مستبشرة لاحياء ذكراها بما يليق بمنزلتها الرفيعة ، مناشدة ضمائر هذه الامة التي ذهبت ضحيتها ان تكون يداً واحدة في مجابهة الشدائد ومكافحة المصائب ، وتبرهن على القول بالعمل ، إذ لاخير في عبرات متدفقة ، وزفرات محرقة بدون تبصر وامعان .

إذن . ! يجدر بنا ـ أيها الاخوان ـ ان نزل عند رغبتهم وان نكون في جنب الحق كالبنيان المرصوص ، يشد بعضنا ازر بعض ، كما ويجدر بنا ان نجعلهم خير قدوة لنا ـ في الحياة وفي الممات ـ فلا نفتي اعمارنا بما لايمت الى المصلحة العامة بصلة وحينئذ يحق لنا ان نقول « فيا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيما » اذ ليس من الحكمة ان نحيي ذكراهم بالبكاء والعويل ، بل الحكمة كل الحكمة ان نحييها بالدرس والتحليل ، لنستوحي من تفانيهم في سبيل العقيدة والمبدأ شعور التضحية في سبيل الواجب المقدس باصدق معانيه .

فاذا نحن لم نستوح من حادث الطف غير هذا الشعور السامي لكفى به دليلا يثبت لنا ان نظام العالم لايقوم على على مبدأ تنازع البقاء فقط ، بل الى جانبه مبدأ آخر هو أقرب الى مقتضيات الانسانية ..! أعني به مبدأ التضحية الذي نكاد نلمسه في كل مظهر من مظاهر الحياة العمرانية والاجتماعية ،

أو ليست البذرة تسقط الى الارض وتموت لكي تنمو منها الشجرة . ؟ أو ليس الأب والأم يضحيان براحتهما في سبيل راحة أولادهما . . ؟ أو ليس العلماء يجازفون بانفسهم ويضحون براحتهم وهنائهم في سبيل مكافحة الامراض وانقاذ الانسانية من الآلام والاوجاع

انظروا ـ أيها السادة ـ الى الحروب منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا . . . ألا ترون الجنود يضحون بارواحهم في سبيل اوطانهم؟ ألا ترونهم يسفكون دماءهم في سبيل الدفاع عن فكرة سامية او مبدأ شريف . ؟ ولكم وقفت فئة صغيرة في وجه فئة كبيرة معرضة للهلاك

على أمل ان تشغل عدوها القوي وتفسد عليه خططه

فمبدأ التضحية إذن .. ! من مستلزمات العمران ، وهو من اقوم دعائم الحضارة الصحيحة . فاذا قضى عليه واندثرت معالمه اصبحت الحضارة عرجاء هوجاء مجردة من العواطف الانسانية ، واصبح الاجتماع مزعزع الاركان وأي خطر اعظم من ان يعم ناموس تنازع البقاء كل مظهر من مظاهر المدنية ..؟ وأية مصيبة اعظم من ان يبتلي هذا الاجتماع بناموس الجهاد في سبيل الحياة المادية ومايطوى عليها من أنانية ، وجشع ، وإثرة و حب النفس ..؟

ولما كان الموت لابد منه ولامحيد عنه ، نخير لنا أن نقايض بهذا الاجل المحدود نفعاً عاما لاحد له ، ونكسب مجداً خالداً لانهاية له . وافضل الاضاحي من امات هيكله في سبيل نفع عام . كذلك الشهداء في سبيل اصلاح الامة وبناء كيانها .

***

لقد اطلقنا التأريخ على سير قادتنا المشاهير ومواقف شهدائنا المغاوير ، ولدى البحث والتدقيق ثبت لدى كل عاقل منصف ان سيد هؤلاء الشهداء .. الحسين « ع » الذي احيى — هو ومن معه — مجد يعرب ، وسؤدد هاشم ودين محمد في وثباتهم وثباتهم . فلم تختلف لهجتهم ، ولاوهنت عزيمتهم ولاضعفت ارادتهم ، حتى اهرقت في جنب الحق آخر قطرة من دمائهم .

وحتى انه (ع) يوم احس بالحصار والتضييق بكربلاء ورأى انه مقتول لامحالة .. عز عليه ان يقتل بسببه غيره حيث ان القوم لايطلبون سواه .. أذن لمن كان معه من اهل بيته وانصاره بالتخلي عنه ، فخطب فيهم قائلا :

— بعد ان حمد الله واثنى عليه — (اما بعد فاني لااعلم اصحابا أوفى ولاخيرا من اصحابي ، ولا اهل بيت أبر واوصل من اهل بيتي .!! فجزاكم الله عني خيرا . ألا واني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعا في حل من بيعتي ، ليس عليكم مني حرج ولاذمام هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا) ،

ليس من الفطنة ان نمر على هذا الموقف الرهيب مر الكرام دون ان نشبعه دروساً وتحليلا . كيف لا ؟ وقد تجلت فيه خلة التضحية تجلي الشهاب في الليلة الداجية . ! ؟

***

لقد ضرب الحسين (ع) في هذا الموقف — وامثاله — الرقم القياسي للايثار مع الحاجة ، والصبر مع الشدة ، وصدق العزيمة مع حراجة الموقف . ولما كان معنى الشجاعة ضبط النفس مع أي مؤثر من المؤثرات بالغاً مابالغه من الشدة . . فهذا — وايم الحق — منتهى الشجاعة

واذا كان الولد (سر أبيه) في الطباع والاخلاق والمظاهر — الا في حالات استثنائية — . . فالحسين « ع » من حيث ضبط النفس ، ورباطة الجأش في غنى عن التعريف ، فهو حفيد محمد المصطفى « ص » صاحب الغار الذي خرج من مكة ثاني اثنين لاثالث لهما يوم انزل الله تعالى آية « اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا » ونجل علي المرتضى « ع » صاحب ليلة المبيت وكفى . . ! وقديما قال الشاعر العربي :

بأبيه اقتدى عدي في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

ونفس أبية قوية مثل نفس الحسين تجذب اليها امثالها ومن على شاكلتها في الاخلاص والتضحية (وشبه الشيء منجذب اليه) فكما تجلت عظمة الحسين في هذا الموقف تجلت عظمة انصاره ، وتجسم اخلاصهم ووفاؤهم ، اذ علموا ان ماهم مقدمون عليه هو الخلود (السرمدي) والنكوص عنه هو الفناء الابدي

فاجابه اخوانه ، وابناؤه ، وبنو اخيه — بلسان واحد — « لم نفعل ذلك .! ؟ أنبقى بعدك ..؟ لا ارانا الله ذلك ابدا »

وتقدم اليه من اصحابه شيخ مسن وهو — مسلم بن عوسجة — فقال : أنحن نخلي عنك .!؟ وبما نعتذر الى الله في اداء حقك ؟ لا والله حتى اطعن في صدورهم برمحي ، واضربهم بسيفي مابقيت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح اقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة . والله لانخلي عنك حتى يعلم الله انا حفظنا غيبة رسوله فيك . اما والله لوقد علمت أني اقتل ثم احيى ، ثم احرق ثم أحيى ، ثم اذرى ، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى القى حمامي دونك ، وكيف افعل ذلك وانما هي قتلة واحدة ثم بعدها الكرامة